

حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري

بقلم : الشاذلي بويحيى

ترك ابو اسحاق ابراهيم الحصري مؤلفات تدلُّ قيمتها الادبيّة على صحّة ما شهد له به القدماء من التفوّق والزعامة والاثّر البعيد في تيار الادب العربيّ بافريقية زمن دولة بني زيري من صنهاجة وإن حمد صيته عند المتأخّرين

والحصري شاعر وأديب ومعلّم . فلم ينحصر إذن أثره في إشعاع عبقرية الشاعر والاديب لإنارة السبيل في وجه الرّيّض المتمرّن من الشعراء والادباء الشبّان وحسب بل كان للحصري الاثر المباشر الفعّال في اتّجاه الشعر والادب في عصره إذ « كان شبّان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ورأس عندهم وشرف لديهم » حسب شهادة ابن رشيق .

وهذا الدور الخطير الذي كان له في تسيير الاتّجاه الادبيّ في عصر ازدهار حضارة القيروان وتوجيهه حسب نزعاته الشخصية او المساهمة في هذا التوجيه يجعل الاهتمام في دراسة الحصري وأدبه يتجاوز الحصري وأدبه ليتناول

الجيل الذي أخذ عن الحصري — مباشرة أو غير مباشرة — فتظهر بذلك ثمرة تعاليمه ومدى تأثيره .

وأول ما يجابهه الباحث عندئذ سؤاله هذا : من هو الجيل الذي أخذ عن الحصري فتأثر بتزعاته الادبيّة ؟

ولقائل أن يقول : ولكن هل لهذا التساؤل من موجب والمتعارف بين الناس أن ممّن أخذ عن الحصري جماعة ابن شرف وابن رشيق واتباعهما وأنّ الحصري توفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة (1022/413) ؟ .

ذلك رأينا . وبقينا أنّ الحصري توفي تلك السنة عندما كان جيل أدباء العصر الصنهاجي الثاني شبّانا وأطفالا . فهم الذين أخذوا عنه وتأثروا بمذهبه فما فيهم وازدهر معهم ووصل أوجه بترعرعهم وكان بتلفهم اندثاره في منتصف القرن الخامس عند خراب القيروان .

ذلك يقيننا . غير أن المصادر التي يعتمدها الباحث في دراسة حياة الحصري رغم قلتها واحتوائها على الزاد القليل كأنّها لا تتفق على هذا التاريخ فلا تخلو إذن من إثارة بعض الاضطراب — في نفوس الناشئة خاصة :

فمن المراجع القريبة لديهم كتابان : « المنتخب المدرسي من الادب التونسي » للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب وبه ذكر وفاة الحصري في سنة 413 وكتاب « عنوان الارب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب » للشيخ محمد النيفر وفيه أن الحصري توفي سنة 453 اي أربع سنوات بعد أفول نجم القيروان وتشتّت القوم في الآفاق وانهيار صرح حضارة القيروان وانتهاء الفترة التي نسمّيها بالعصر الصنهاجي الثاني .

وعندها يتبيّن أهميّة تساؤلنا عن الجيل الذي تأثّر بالحصري في إنتاجه الأدبيّ من هو بل وجوب هذا التساؤل إذ لا سبيل الى الانكباب على دراسة ما علمنا للحصري من أثر لمعرفة فحواه ومداه ما لم نعلم علم اليقين من هم القوم الذين ظهر هذا الاثر في تأليفهم فكان قريب التناول هيّن الفحص ثابت المعالم في أدب تلاميذه ومن تلاهم .

ثم لم نكن لنعنى بالامر خاصّة ونعير له مثل هذا الاهتمام لو انفرد كتاب « عنوان الاريب » بالخبر الثاني . فمن المعروف ان الشيخ محمد النيفر — رحمه الله — لم يكن كثير التحريّ في ما يثبته فقد يقتصر على المصدر الواحد ولا يكلّف نفسه مؤونة النقد بل ولا التفكير . ولم نكن كذلك لنعنى به هذه العناية وقد تناول المسألة شيخنا المحقّق الاستاذ ح.ح. عبد الوهّاب في مجلّة « البدر » (جمادى الاولى سنة 1340 المجلّد الثاني ص 310) فأثبت الخبر الأوّل وناقش الثاني وردّه عن ابن خلّكان .

وإنّما عرضنا الى المسألة هنا رغم هذا وذاك أوّلاً لتواتر الخبر عن وفاة الحصري سنة ثلاث وخمسين خاصّة في المطبوعات المتأخّرة . ثانياً لأنّ ردّ الاستاذ ح.ح. عبد الوهّاب لا يتعرّض الى جميع هذه المصادر بالذكر والتحليل إذ جاء في صورة تعليق عارض أسفل النصّ .

نلاحظ أوّل ما نلاحظ عند الاطلاع على مصادر البحث في حياة الحصري أنّها جميعاً — ما عدا حاجي خليفة ومحمد النيفر — تذكر سنة 413 يقتصر على ذكرها دون سواها ياقوت (1) والمستشرق بروكلمان Brockelmann (2)

(1) معجم الادباء ج 2 ص 94 (ط . دار المأمون — مصر) مع تعليق للناسخ يذكر فيه سنة 453 عن الصفدي .

(2) G. I ص 267 وبه : « بعد سنة 413 » مع اضطراب في الفصل لذكره تأليف زهر الآداب في سنة 450 بدون نقد . وسيأتى الحديث عن هذا .

وح.ح. عبد الوهاب بينما يزيد عليها الصفدي في كتاب «الوافى بالوفيات» (3) سنة 453 نقلا عن ابن خلّكان .

والذى لا شكّ فيه أنّ ابن خلّكان (4) يقول بالسنة الاولى . فهي التي أثبتتها في سياق ترجمته للحصري في عبارة الجزم الصريح إذ يقول : « توفي ابو اسحاق المذكور بالقيروان سنة 413 » ويقينه يظهر في الجملة التالية لهذه وهي : « وقال ابن بسّام في الذخيرة : بلغني انه توفي سنة 453 والاول اصحّ . رحمه الله » . وعبارة ابن بسّام ذاتها (بلغني...) لا تفيد اليقين حسب شروط الرواية والإسناد . غير أنّ نصّ « الوفيات » لا ينتهي بهذا بل يأتي بعد الجملتين السابقتين ما نصّه : « وذكر القاضي الرّشيد بن الزبير في كتاب الجنان في الجزء الاول في ترجمة ابي الحسن علي بن عبد العزيز المعروف بالفكيك أنّ الحصري المذكور ألف كتاب زهر الآداب في سنة 450 وهذا يدلّ على صحّة ما قاله ابن بسّام والله أعلم » . وهي عبارة قد يفهم منها ان ابن خلّكان يرجّح في نهاية الامر سنة 453 على سنة 413 وهو ما ذهب اليه الصفدي واقتصر عليه محمد النيفر وحاجي خليفة من قبله .

لكننا نشكّ في نسبة هذه العبارة لابن خلّكان . فبعد أن جزم بأن أبا اسحاق توفي سنة 413 في الجملة الاولى وأكّد هذه النظرية في الجملة الثانية بقوله « والاول اصحّ » وأنهى الحديث عن الحصري بقوله « رحمه الله » كيف يقبل منه التناقض والاضطراب بزيادة هذه العبارة : « وهذا يدلّ على صحّة ما قاله ابن بسّام » ؟ ثمّ إنّ العبارة غريبة في هيئتها لا يطمئنّ الناقد إلى انها من

(3) مخطوطة جامع الزيتونة بتونس عدد 4844 ج 5 ص 68 - 69 .

(4) ج 1 ص 113 - 116 (ط) . دار المأمون . مصر سنة 1936 .

كلام ابن خلكان إذا ما انتبه الى محلّها من الترجمة (بعد الانتهاء من هذه الترجمة بالترجم على المترجم له) وإلى أسلوبها وهو أسلوب من أراد الزيادة والاحتجاج فألحّ في الاستدلال واستعمال عبارات الاستدلال في قوله : « في كتاب... في الجزء الأوّل في ترجمة... وهذا يدلّ على صحّة... » .

وقد شكّ في نسبة هذه الجملة لابن خلكان منذ القرن الفارط ناشر « الوفيات » باللغة الانكليزية (5) وحجّته - وهي بالغة حاسمة - أن العبارة لا توجد في جميع المخطوطات . فلا ريب إذن في أنّها زيادة على نصّ ابن خلكان .

أمّا ما روي في كتاب الجنان من تاريخ تأليف زهر الآداب فلا يبعد أن يكون غلطاً ناشئاً عن نقل سيّء أو سماع رديء وقد يكون التاريخ سنة 405 لا سنة 450 وما أقرب « سنة خمس » من « سنة خمسين » في النطق وفي الخط ! وأمثال هذه الاغلاط كثيرة يألّفها من يمارس المخطوطات العربية .

وفي سنة 450 كانت القديرون خراباً يباباً فلم يكن بها أدباء ولم يكن بها تأليف ولم يكن بها للآداب زهر .

فلم يبق بعد هذا ما يثبت سنة 453 سوى ما رواه ابن بسّام وقد تبين لنا ضعفه ولصاحبه أيضاً .

أمّا سنة 413 فحججها متينة لا سبيل للشكّ بعدها :

يذكرها جميع من ترجم للحصري من القدماء نقلاً عن كتاب

(5) ط . باريس ولندن سنة 1843 ج 1 ص 35 . تعليق عدد 4 . وعن كتاب « الوفيات » أخذ حاجي خليفة وغيره .

« الانموذج » لابن رشيق . ولا شكّ لمن طالع « الذخيرة » و « معجم الادباء » و « وفيات الاعيان » و « الوافي بالوفيات » انّ ابن بسّام وياقوت وابن خلكان والصفدي كانوا يملكون « الانموذج » . أمّا ياقوت فقد كان بين يديه نسخة منه بخطّ ابن رشيق إذ يقول في « معجم البلدان » (6) في ضبط كلمة رُصْفَة : « كذا ضبطه من خطّ حسن بن رشيق في الانموذج » وفي كلمة صدف : « قال الحسن بن رشيق القيرواني ومن خطّ يده نقلته » (6) .

وشهادة ابن رشيق لا سبيل للطعن فيها لانه معاصر الحصري وتلميذه وقد نصّ في ترجمته أنّه مات فلم يَكُنْ ذلك الا قبل تأليف الانموذج وكان ذلك حوالي سنة 420 . يقول ابن رشيق : « مات بالمنصورية من أرض القيروان سنة 413 وقد جاوز الاشدّ » . ويفيدنا ابن رشيق أنه كان أصغر شعراء القيروان سنّا قبيل وفاة الحصري في قوله (7) : « وقد كان أخذ في عمل طبقات الشعراء على رتب الاسنان وكنت أصغر القوم سنّا... » ثم يقول ابن رشيق : « ... ومات وقد سُدَّ عليه باب الفكرة ولم يصنع شيئاً » يعني عمل طبقات شعراء القيروان . وابن رشيق لم يكن أصغر القوم في سنة 453 إذ جاوز عمره إذّاك الستين .

وممن سمع من الحصري من أدباء القيروان ابو طاهر التجيبي صاحب كتاب « المختار من شعر بشار... » وهو يكرّر في كتابه عبارات « أنشدني [ابراهيم الحصري] لنفسه » و « رحمه الله » ممّا يدلّ على وفاة الحصري قبل سنة 450 وهي سنة وفاة التجيبي .

(6) ج 3 ص 50 و ج . 3 ص 397 من ط . بيروت 1376/1957 .

(7) المصدر المذكور أعلاه من معجم الادباء .

فلا سبيل إذن إلى الاخذ بسنة 453 كتاريخ لوفاة الحصري ولا إلى الشكّ في أنّه مات سنة 413 فهو حينئذ من أدباء العصر الصنهاجي الأوّل فشارك مع أترابه الاعلام أمثال القرّاز والنهشلي وغيرهما في تمهيد السبيل إلى ازدهار عصر المعزّ بن باديس وهو عصر القيروان الذهبي .

ومنّ اشتهر بالعلم والادب والشعر المتين الرقيق في هذا العصر الصنهاجي الثاني علي الحصري الكفيف المتوفّي سنة 1095/488 بعد هجرته إلى الاندلس والمغرب إثر خراب القيروان . وقد اختلف من ترجم لهما في النسب بينهما فمن قائل إن علياً ابن خالة ابراهيم ومن قائل إنه ابن أخته .

وليس للأمر من الاهميّة ما يوجب بحثاً كالذي أوجبه تاريخ وفاة ابراهيم . فلنكتف بالإشارة إلى أنّ ما أثبتناه من تاريخ وفاة ابراهيم الحصري يجعل الرجلين في جيلين متباينين فالراجح أن عليّ الحصري ابن أخت ابراهيم لا ابن خالته .

ثم لعلّ هذا البحث قد أثمر فائدة أدبيّة ذات بال إذا صحّ ما ذهبنا إليه في تأويل قول الرشيد بن الزبير من تاريخ تأليف زهر الآداب في سنة 405 وهي إذن سنة بداية إنتاجه الادبيّ لانه ثبت لدينا ان مؤلفاته الاخرى تالية « للكتاب الكبير » على حدّ تعبيره في نعت زهر الآداب .

وهذه التحقيقات — على حقارتها — تفيد دراسة الحصري والادب الصنهاجي إذ أنها توضّح القليل الذي بقي لدينا عن حياة الحصري وشخصه أوّلاً وتبيّن بعض العوامل والاسباب في نموّ الادب في عصر اكتماله بالقيروان ثانياً .

فلعلَّ من أهمِّ ما كان من دور الحصري في تثقيف ناشئة القيروان في مستهلَّ القرن الخامس الهجري أنه نشر بين تلامذته نصوص الادباء الاعلام من مشاهير الشرق في القرن الرابع الراحل وفجر الخامس وبثَّ في أنفسهم حبَّ أدب المحدثين بينما كانت الثقافة في العالم العربيَّ كُله تعتمد القديم وتفضله على الجديد . وليع الحصري بأدب الهمداني أيَّما ولوع وأثبت من رسائله ومقاماته في منتخباته كثيرا . فقد يكون بذلك دخول « المقامة » الى افريقية واشتغال أدباء القيروان بهذا الفنَّ الوليد .

ف « مسائل الانتقاد » لابن شرف القيرواني (8) — او بالاحرى ما بقي من هذا الكتاب — إنَّما هي اثنتان من عدَّة مقامات (9) ألَّفها ابن شرف . وهو أوَّل إنتاج إفريقيٍّ في فنَّ المقامة (10) وأثر بيِّن لتعليم الحصري في اتِّجاه الادب عند شبَّان القيروان .

(8) نشرها ح. ح. عبد الوهاب بعنوان « رسائل الانتقاد » ضمن « رسائل البلقاء » . مصر سنة 1913 ثم أعاد نشرها ش بيللا Ch. Pellat بعنوان « مسائل الانتقاد » الجزائر سنة 1953 .
(9) يقول ابن بسام في الذخيرة 4/1 ص 154 : « ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابهِ وصب فيها على قلبه . . . » على أن الاستاذ بلاشير R Blachère لم يذكر ابن شرف من بين أصحاب المقامات في بحثه عن الهمداني وفن المقامة :

Al-Hamadānī. Choix de Maqamāt (séances), Paris 1957

انظر خاصة من ص 123 الى ص 129 .
(10) ولعل هذا الفن قد ألَّف فيه أيضا عبد العزيز الطارفي أحد شعراء « الانموذج » وهو اذن من أدباء العصر الصنهاجي الثاني أى ممن تأثر بتعاليم الحصري . قال ابن رشيق : « وأكثر اشتهاره بالنشر دون النظم اذ كان فيه فارس الفرسان وواحد الزمان ما بين تزويق مقامة مبدعة او خطبة . . . » نقله ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار (خ باريس عدد 2327) XVII ص 88 والصفدى في الوافي بالوفيات (خ . تونس عدد 4849) XVII 56 — 57 .

وما كنّا لنصل الى هذا الاستنتاج لو لم يتّضح لدينا أمر تاريخ وفاة الحصري إذ ان « مسائل الانتقاد » ألّفها صاحبُها بالقيروان قبل هجرته منها عند زحف بني حلال اي قبل سنة 453 المذكورة بسنين عدّة . فتعليم الحصري لم يكن ليثمر فيؤثري أكمله هذا الرائع البهيج لو لم يكن قد سبق بكثير ظهور هذا النتاج فتيسّر إذّاك النضج والاكتمال في فرع يانع زاك من غرس كريم .

وإذا تجلّى لدينا بهذا مدى أثر الحصري في الادب بافريقية فالتحقيق في تاريخ وفاته يبدو لنا ذا شأن خطير إذا ما خرجنا بالبحث والنظر من نطاق إفريقية الضيّق الى أقطار عربيّة أخرى . ونريد أن نقصر البحث هنا على نقطة وجيزة لا نتجاوزها فنقصر بها — دون ما تعمّق — على الإشارة الى ما يبدو لنا كشفا هاماً في تاريخ الادب العربي .

ذلك أننا بتتبّع آثار ابراهيم الحصري في مظانّها عثرنا على تأليف له غريب هو كتاب « المصون في سرّ الهوى المكنون » (11) . وهو في قالبه الطريف كحديث بين متحاورين دراسة تحليليّة لعاطفة الحبّ في مظاهرها وظهورها عند العشاق لا سيّما عند من أراد كتمها ومن تغافل عنها ومن أبى الاعتراف بها فبدت في سلوكهم من حيث يشعرون ولا يشعرون .

والوقوف على هذا الكتاب وقراءته وتحليله لا يغيّر النظريّة التقليديّة حول منتوجات الحصري فحسب فيجعلها تتجاوز نطاق الادب المحظ بل وصل بنا الاطلاع على هذا الكتاب الى رأي آخر لا تخفى أهميّة على علماء العربيّة

إذا أثبتته بحث مدقق نرجوه قريباً . وهو ان كتاب الحصري هذا يمكن اعتباره أصلاً من الاصول المظنونة لتأليف ابن حزم الاندلسي المسمى « طوق الحمامة في الالفه والالاف » .

فالشبه متين بين الكتابين . وإشعاع إفريقية الادبي والعلمي على الاندلس كبير غير محدود وتفوق الافارقة وعطفهم على علماء الاندلس وأدبائها مشهور . والتجاوب بين القطرين وتتبع أهل القطر لما ينشأ وما لا ينشأ - خاصة (12) - في القطر الآخر معروف . فلا يبعد إذن بل يقين - إلا إذا ما أثبت النقد الداخلي عكس ذلك - ان ابن حزم المتوفى سنة 456 (13) عرف كتاب « المصون » للحصري كما عرف رسالة الجاحظ في العشق والنساء (14) والموشى لوشاء ورسائل إخوان الصفاء وتأثر به كما تأثر بتلك الاخرى .

ولا يكون ذلك ولا يكون وجود التأثير في هذا الحدث الادبي الخطير إلا إذا ما ثبت يقيناً ان أبا اسحاق ابراهيم ابن علي الحصري توفي سنة 413 وهو ما أردنا كشف الظنون عنه .

ش. بويحيى

(12) انظر مثلاً رسالة ابن الربيب القيروانى الى عبد الوهاب بن حزم الوزير الاندلسى وردا - مؤخرا - عليها لابی محمد علي بن حزم صاحب « طوق الحمامة » فى كتاب الذخيرة لابن بسام 4/1 ص 111 وما بعدها .

(13) والمشهور ان ابن حزم ألف « طوق الحمامة » حوالى سنة 417 . فالأخذ بسنة 453 كتاريخ وفاة الحصرى قد يعكس مجرى التأثير فيجعل كتاب « طوق الحمامة » أصلاً من أصول كتاب الحصرى .

(14) وهى رسالتان لا رسالة واحدة حسب تحقيق الاستاذ ش . بيلا Ch. Pellat (فى مجلة III ARABICA فى سنة 1956 ص 147 وما بعدها . انظر عددي 84 و 146 فى ذلك المقال) .